عطلة الأحد

إدوارد ليس هو ذلك الرجل المناسب لك،

قالها لي أبي بينما كان مستمتعًا بتناول اللحم المقدد مع احتساء النبيذ الأحمر،ثم أكمل..حياة البرية لا تناسبك أرسلتك للمدينة لإتمام دراستك وإبعادك عن رائحة الحطب المشتعل وكفوف الحطابين المتشققة..

لن تتحملي صمت الحطاب،حزنه،تعاسته،عزلته،سعادته،ولا حتى ثرثرته، وهو مخمورا..

سيكون بعيدًا عنك طيلة الشتاء فالفأس تستعيد أنفاسها في ليالي البرد، الحطاب والبرية كما السمكة والبحر، الفأس هي أنثاه تنام بين أحضانه وسط كومة من الأوراق الجافة التي سقطت من ضحاياها..

أعلم أنك تفضلين المكوث في كوخ جدك القديم بجانب النهر،أقضي نحو ساعتين للوصول لأقرب قرية لأبتاع لك بطاريات مشغل الموسيقى خاصتك والسكاكر التي تفضلينها،والدتك وجدتك يستمعون لأغاني الحطابين والناي. يخبزن الفطائر داخل الفرن القديم الذي بصقتي عليه لعناتك عندما أحرقت يداك وأنت تلتقطين منه واحدة من الفطائر..

أعلم أيضا أن يداك ملطخة بالأزهار بينما نساء القرية يلطخن أيديهن بطين الوادي، ماري لست رجلًا صالحًا ولا فاسدًا،لا شيطانًا ولا ملاكًا أنا حطاب..

تذكري وأنت ترتدي حذاءك الرياضي أن والدتك لا زالت تذهب لصانع الأحذية بالقرية المجاورة لسنا فقراء، ولكن هذه هي حياتنا،نحبها كما هي لا نريد أن نغير فيها..

أدرك أنك الآن تتساءلين لما كل هذه الثرثرة لأنني على علم بأنك أحببتي المدينة بصخبها،أغانيها المجنونة ومأكولاتها السريعة..

ذات يوم أحبتني امرأة (كاثرين) جنت بحياة البرية وأشجارها عشقت الكوخ والنهر،متيمة بأشجار الصنوبر كانت تنظر بشغف للغيمات الرمادية وتتساءل هل ستمطر؟؟

أحقًا سنركض سويًا نحو الكوخ ولم تكمل حديثها إلا وانهمر علينا المطر بكل قوته ثم بدأت بالصراخ أحبك جون أنا أحبك وبينما كنا نركض هربًا من غضب السماء،سقطت على العشب المبلل وتلطخ فستانها الزهري بالوحل ضحكت أنا كثيرًا فغضبت مني ومدت لي يداها لأسحبها فجذبتني بكل قوتها حينها سقطت بجانبها وأخذت هي حصتها من الضحك،ضحكاتها صوت المطر،وشعرها المبلل كان الأكثر تحريضا على تقبيلها ومعانقتها، دفعتني وركضت نحو النهر خلعت حذاءها ثم فستانها وغسلتهما في المياه وأنا خلفها أختلس النظرات على جسدها

العاري،مرت من جانبي، وهي تحمل فستانها المبلل بيد وبالأخرى تحمل الحذاء حينها توقف المطر وكاد قلبي أن يتوقف لأول مرة أرى أنثى عارية تمامًا.. علقت فستانها على غصن الشجرة المجاورة للكوخ طلت علينا الشمس وكأن شيئًا لم يكن..

دعوتها للجلوس داخل الكوخ، ولكنها رفضت وفضلت الجلوس عارية، كانت هادئة مستسلمة لجبروت الطبيعة من حولها أما أنا حملت الفأس وبكل قوتي قطعت الغصن الثاني من الجهة الأخرى للشجرة، صرخت في وجهي جون هل جننت أم ماذا كيف لك أن تفعل ذلك؟ انظر على الأرض لقد أسقطت عش العصفور..

أنت رجل قاس هل تعرف كم أمضى العصفور في بناءه هل تعرف كم صمدت أجنحته أمام الريح لتأتي أنت بكل حماقة وتطرحه أرضًا بضربة فأس!!

لم أكن أبالي بكل ماتقوله فأنا دائمًا أسقط أعشاش العصافير من فو ق الأغصان لا أعرف ما كل هذا الغضب الذي أحل بها مجرد عش فارغ لعصفور مهاجر تبًا.

العشق في هذه البلدة تمامًا كمخبوزات جدتك يشتم الجميع رائحته من على بعد أميال لقبني الجميع بـ جون العاشق هادم أعشاش العصافير..

أبي لم يعجبه الأمر فاتفق مع صديقه ألبرت أن يأخذني معه برحلات الصيد التي يقوم بها والتي تستغرق أكثر من

شهرين ليبعدني عن كاثرين كان يخبرني دائمًا أن فتيات المدن لا يتحملن معاشرة الحطابين..

رحلة..

سعادتي بحكايات أبي مع البرية وعشقه القديم كانت أكبر من أن تكتب على الورق،كاثرين العشق الأول، وكيف له أن ينسى؟!

الغيمات..المطر والكوخ غصن الشجرة وأعشاش العصافير..العشب الرطب والنهر هذه البلدة هي العشق كيف له أن ينفذ وصايا جدي معي بينما رفضها هو ذات يوم؟

النبيذ الأحمر يدفع أبي للثرثرة وإخراج كل ما هو مدفون ببئره..يثمل، ولكن لا يترنح..يفرش أوراق الذكرى ويخطو عليها.. اليوم كان أكثر هدوء أما أنا فكنت أكثر شغفًا للاستماع إليه.

بدأ حديثه معي ب:ماري ابنتي الوحيدة المدللة "الرحلة" رحلة الصيد، أخذني أبي على غفلة مني حتى أنني لم أستطيع توديع كاثرين آنذاك، ذهبت مع العم ألبرت مركب صيد كبير فجأة أصبحت صياد على قيد حياة الحطابين،كنت أنظر على مداد النهر كالمجانين علّني ألمح كاثرين على الأقل أشعر أنني ودعتها، لم يحالفني الحظ في رؤيتها مزاجي على المركب كان سيئًا للغاية وفأسي لا

تفارقني فمنذ اللحظات الأولى على المركب وأنا أشتاق لرائحة البرية وأشجار الصنوبر اشتقت لنظرات كاثرين المجنونة شعرت بقسوة الغربة بعيدًا عنها.كل شيء على المركب كان يثير اشمئزازي أنا لا أحب السمك ولا أحب رائحته النتنة،أبي كان يعلم ذلك جيدًا ومع ذلك كان يعاقبني برحلة صيد.

في يوم وليلة أصبحت في منتصف الماء بعدما كنت بين الشجر شعرت بجوع الفأس وصراخها ليلًا كنت أحتسي الشراب في الليل والنهار مهنتي الوحيدة على المركب هي ترتيب قوارير الخمر واحتساء الكثير منها..وصايا جدك لم تبتعد عني كثيرًا فالعم ألبرت كان يقوم بتوبيخي بدلًا من أبي..

الأيام كانت تمر ببطيء كاثرين لم تفارق مخيلتي للحظة ورائحة خبز امي،كفها الحنون، صوتها وأغانيها كل شيء أصبح بعيدًا عني ستون يومًا لا أعرف كيف مضت، ولكنها مضت..

تعلمت الكثير من العم ألبرت ففي هذه الرحلة قام بتهذيب الحطاب ومنحه صبر الصيادين، في اليوم الثاني بعد الخمسين ترك لي شبكة صيد معقدة وأمرني بحل عقدها..كانت كثيرة العقد لم أحتمل قط وتساءلت كيف للصياد أن يتمتع بكل هذا الصبر في حل العقد ولماذا في هذا الوقت بالذات أسند لي هذه المهمة؟؟!

أحضـرت قـارورة الخمـر بجـانبي ورتبـت ذكريـات الوادي،البريـة وبعـض أحاديـث العصـافير..نفسًـا عميقًـا ثـم احتضنت الشبكة اللعينة وأقسمت لها أن أخلصـها مـن تلـك العقد.

أكثر من سبع ساعات مرت وأنا جـالس يلفحنـي الهـواء ورائحـة النهـر والسـمك التـي اعتـدت عليهـا بعـدما كانـت تصيبني بالغثيان..

من خلفي صوت العم ألبـرت: جـون هـا أنـت ذا أنهيـت المهمة بنجـاح كنـت ثمـل للغايـة ولا أعـرف عمـا يتحـدث، فقال لي انظر للشبكة لقد فعلتها.. ألقيـت عليهـا نظـرة ثملـة سعادتي في تلـك اللحظـة لا أسـتطيع وصـفها..طيلة الوقـت ومخيلتـي مزدحمـة بالأشـجار والعشـب الرطـب لـم أفكـر للحظة في أمر الشبكة التي كانت بين يدي..

أدركت أن الإنسان لا يشعر بجمال الأشـياء طالمـا أنهـا بين يديه.

"عودة"

اللحظة التي رست فيها المركب علـى نهـر القريـة هـي ذات اللحظة التي عاد فيهـا نبضـي..كنت أركـض وأصـرخ هأنـا عـدت هأنـا هنـا آه يـا رائحـة الشـجر، ارتميـت بـين أحضـــان الشـــجرة العتيقـــة المجـــاورة للكـــوخ قبلـــت أغصـانها،ألقيت نفسـي علـى العشـب، سـتون يومًـا مضـت

قضـيتها مـع السمك،الصـيادون هـادئون. هـادئون للغايـة افتقدت صـراخ أخـي مـع الحطـابين و ثرثرتهم،ضـحكاتهم وهم مخمورين،كنت بحاجة لاحتضان الهواء فجأة تـذكرت أمي.. أبي وكاثرين..

فرحتي بالعودة لم تكتمل فحينما ذهبـت للبيـت أخبرتنـي أمي أن كاثرين ذهبـت بعـدما رحلـت أنـا مـع العـم ألبـرت، اعتقدت أنني تخليت عنها وتركتها، ومنـذ ذلـك الحـين وأنـا أخوض المعـارك مـع أبـي وتمنيـت كثيـرًا لـو أننـي لسـت حطابا.

طلبت منه كثيرًا أن يدعني أذهب للمدينة حيث كـاثرين، ولكنه رفض بشدة لم يكن أمامي سوى الرسائل ثلاثة أشهر وأنا أسطر لها دون جدوى..أصابني الملل توقفت عن كتابة الرسائل ثم اعتـدت الأمر..انتظرتهـا شـهور كـان عليهـا أن تأتي في إجازة الصيف ولم تفعل..ثم اعتدت غيابها وانتهـى الأمر.

"شجرة التوت"

سوف أعبر إليك..

قالتها، وهي تغني للنافذة..
بعدما نزعت القناديل من فو ق أغصان شجرة الميلاد..

بينما هو كان منهمكًا بإعداد الشاي على الحطب في الجهة الأخرى..

وصوت أبيها يتسلل من خلفها..

ماري

كان يجب على الفأس أن يعتذر للشجرة!!!

بعدما أفقدها ساقها الوحيدة،

فمنذ سنوات عبرت للجهة الأخرى مع الحطابين كنا نمارس الألعاب الغامضة المخيفة بين الأشجار

نختبئ خلفها وأحيانًا من شدة الخوف نحتضنها.

أخي كان مخمورا وبيده الفأس،

صدى ضحكاته الصاخبة كان يعبر مع الهواء يرفعها لأعلى بكل قوته،

ثمة شيئًا لا أعرفه جعله يبكي كالصغار عندما سقطت الشجرة على الأرض..

مرددا أمي أرجوكِ لا تتركيني هنا وحدي لم أكن أقصد إيذاءك

حينها ضحك الجميع بهستريا..

أما أنا تركتهم وذهبت لأنحت اسمك على شجرة التوت ..ماري

ابنتي الوحيدة المدللة لا تحبي رجلا يقطع الشجر!!

أبي.. ولكني فعلت..أحببت رجلًا يقطع الشجر،إدوارد يحبني..أنا لست كاثرين ولا كاثرين تشبه ماري أنا ابنة البرية ابنة جون الحطاب لست من فتيات المدينة .

أحببتها حقًا، أدهشني الزحام،المقاهي، أضواءها الثائرة أحببتها، ولكن لا أستطيع العيش فيها طيلة أيام حياتي.. أنا ابنة العشب،ابنة الشجر والنهر كيف لي أن أترك هذا الطين الذي غرست فيه أولى بذوري أخبرني أنت كيف لي أن أترك هذه الجنة.. أبي ماري ليست كاثرين!!

لا تفرق بيني وبين إدوارد هناك غيمات تنتظرنا على الضفة الأخرى من النهر هو مثلي يعشق البرية لم يكن ذنبه أبدًا أنه احترف مهنة أبيه كما فعلت أنت..